أدين فتال هو؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

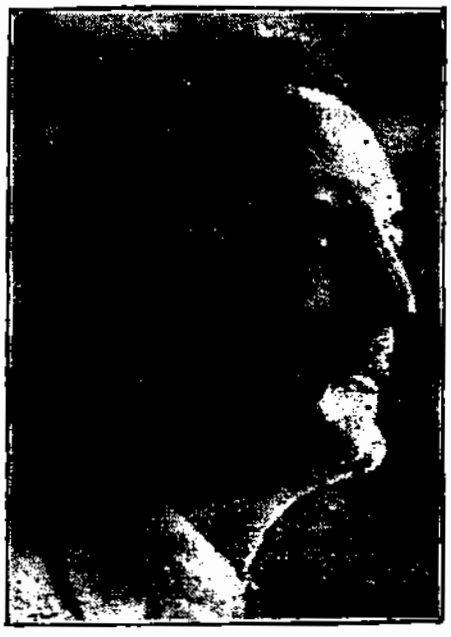

من المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام إليه أنه دين سيف وليس بدين إقناع : يريدون بذلك أنه لا يقنع الأمم التي دعيت إليه لولا التغزو والإكراه بقوة السلاح

ولتمحيص هذا القول الذي يقال ويعاد في كل زمان نقرر هنا بعض الحقائق التي يسلّمها المنصف ولا ينكرها إلا المكابر ، لنثبت أن الإسلام شأنه في استخدام القوة كشأن كل دين ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحاً للانتصار

« فالحقيقة الأولى » أن هذا المطعن لو صدق لوجب أن يصدق في بداية عهد الإسلام الذي دان فيه بهذا الدين كثير من العرب المشركين ولولاهم لما كان له جند ولا حمل في سبيله سلاح

لكنّ الواقع أن الإسلام في بداية عهده كان هو المتعدّى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبي عليه السلام ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وكانوا يحاربون من لا يؤمَن عهده ولا يتقى شره بالحلف والمسالمة : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون »

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ؛ فلم يكن منهم قط عدوان ولا إكراه

وحروب النبي عليه السلام كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم

* * *

« والحقيقة الثانية » أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارَب بالبرهان والإقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للاصغاء إليه

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى في إخضاعها عن القوة ، ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، بل كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء ، وفي الأعقاب بعد الأسلاف ، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب « السلطة » التي تأبى العقائد الجديدة ، وتبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب ؛ ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي ، وتجربة روسيا في القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال في تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر البلاد

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة ، ولا بد من التمييز بين العملين لأنهما جد مختلفين

* * *

« والحقيقة الثالثة » أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح . ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهم بالرضى والاختيار .

* * *

« والحقيقة الرابعة » أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لا بد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع

فاليهودية كانت كما يدل عليه اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس ، فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم ، فضلاً عن امتشاق الحسام ، لتعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار

أما المسيحية فهى قد عنيت « أولاً » بالآداب والأخلاق ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة

وهى قد ظهرت « ثانياً » فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال

أما الإسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنبى عليه ، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام ، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين ، وأربت حروب المذاهب فيها بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات ...

* * *

«والحقيقة الخامسة» أن الإسلام شرع الجهاد ، وأن النبى عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

وجاء فى القرآن الكريم : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح

لكن هذه الفتوح لم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت هى وسيلة الإسلام للظهور وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كليهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه

هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

* * *